شواهد الفارقة اللغوية

في الشعر العربي القديم

obeikandl.com

obeikandl.com

في العصر الجاهلي

كثيرة هي شواهد المفارقة اللغوية في شعرنا العربي القديم ، ومعلوم أنها كانت تأتي عفوا من قائلها دون قصد منه أو تعمد ، شأنها شأن طبيعة الشعر الجاهلي الذي كان يتسم بالفطرة والتلقائية ، ومن هذه النماذج :

جاء في معلقة عمرو بن كلثوم قوله :

أبا هند فلا تعجل علينا ... وانظرنا نخبرك اليقينا

تهددنا وتوعدنا رويدا ... متى كنا لأمك مقتوينا

فإنّ قناتنا يا عمرُو أعيتْ ... على الأعداء قبلك أنْ تلينا

بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدرهن حمرا قد روينا

وقد علم القائل من معد ... إذا قبب بأبطحها بنينا

نا المطعمون إذا قدرنا ... وأنا المهلكون إذا ابتلينا

وأنا المانعون لما أردنا ... وأنا النازلون بحيث شينا

وأنا التاركون إذا سخطنا ... وأنا الآخذون إذا رضينا

وأنا العاصمون إذا أطعنا ... وأنا العازمون إذا عُصينا

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ويقول :

إذا بلغ الفطام لنا صبي ... تخر له الجبابر ساجدينا

انظر إلى ما انتهجه الشاعر من مفارقة في هذه الأبيات ، تجدها مفارقة لفظية ملحوظة في المقابلة بين كل شطر وآخر ، فضلا عن المفارقة اللغوية في المعنى إذ ينفي من خلال أسلوب التقابل خنوع قومه ورضاهم بالذلة والاستكانة ، ليثبت

أنهم سادة شرفاء ذوو أنفة وكبرياء ، وانظر إلى المفارقة غير المتوقعة في البيت الأخير التي يثبت فيها قوة قومه وتوارثهم السيادة جيلاً بعد جيل . حتى الصبي حين يبلغ الفطام تخر له الجبابر ساجدين ، ومع ما في هذا القول من مبالغة إلاَّ أن المفارقة اللغوية الكامنة في المبالغة مقبولة ومحققة ما أراد الشاعر .

obeikandl.com

في العصر العباسي

في شعر المتنبي

عيـــدٌ بأيّـــةِ حـــالٍ عُـــدتَ يـــا عيـــدُ
بمَـــا مَضَـــى أمْ بـــأمْرٍ فيـــكَ تجْديـــدُ

أمّـــا الأحِبّـــةُ فالبَيْـــداءُ دونَهُـــمْ
فَلَيْـــتَ دونَـــكَ بِيـــدًا دونَهَـــا بِيـــد

يـــا سَـــاقِيَيَّ أخَمْـــرٌ فـــي كُؤوســـكُما
أمْ فـــي كُؤوسِـــكُمَا هَـــمٌّ وتَســـهيدُ؟

أصَـــخْرَةٌ أنَـــا، مـــا لـــي لا تُحَرّكُنـــي
هَـــذِي المُـــدامُ وَلا هَـــذي الأغَارِيـــدُ

إذا أرَنْتُ كُمَيْـــتَ اللّـــوْنِ صَـــافِيَةً
وَجَـــدتُهَا وَحَبِيـــبُ الـــنّفسِ مَفقُـــودُ

مـــاذا لَقِيـــتُ مِـــنَ الـــدّنْيَا وَأعْجَبُـــهُ
أنّـــي بِمَـــا أنَـــا شَـــاكٍ مِنْـــهُ مَحْسُـــودُ

لَوْلا العُلَى لم تجُبْ بي ما أجُـوبُ بهَـا
وَجْنَـــاءُ حَـــرْفٌ وَلا جَـــرْداءُ قَيْـــدودُ

وكَـــانَ أطْيَـــبَ مِـــنْ سَـــيفي مُعانَقَـــةً
أشْـــبَاهُ رَوْنَقِـــهِ الغِيـــدُ الأمَاليـــدُ

لم يَتْرُكِ الدّهْرُ مِـنْ قَلبـي وَلا كبـدي
شَـــيْئًا تُتَيّمُـــهُ عَـــينٌ وَلا جِيـــدُ

أمْسَـــيْتُ أرْوَحَ مُثْـــرٍ خَازِنًـــا وَيَـــدًا
أنَـــا الغَنِـــيّ وَأمْـــوَالي المَوَاعِيـــدُ

إنّـــي نزلْـــتُ بكَـــذّابين، ضَـــيفُهُمُ
عَـــنِ القِـــرَى وعَـــنِ الترْحـــالِ محْـــدُودُ
جودُ الرّجـــالِ مـــن الأيـــدي وَجُـــودُهُمُ
مـــنَ اللّســـانِ، فـــلا كـــانوا ولا الجُـــودُ
ما يقبضُ المَوْتُ نَفْسًـــا مـــن نفوسِـــهِمُ
إلاّ وفـــي يَـــدِهِ مِـــنْ نَتْنِهَـــا عُـــودُ
أكْلَمَـــا اغتَـــالَ عَبْـــدُ السّـــوْءِ سَـــيّدَهُ
أوْ خَانَـــهُ فَلَـــهُ فـــي مصـــرَ تَمْهِيـــدُ
صَـــارَ الخَصِـــيّ إمَـــامَ الآبِقِـــينَ بِهَـــا
فـــالحُرّ مُسْـــتَعْبَدٌ والعَبْـــدُ مَعْبُـــودُ
نَامَتْ نَـــوَاطِيرُ مِصْـــرٍ عَـــنْ ثَعَالِبِهَـــا
فَقَـــدْ بَشِـــمْنَ ومَـــا تَفْنَـــى العَنَاقِيـــدُ
العَبْـــدُ لَـــيْسَ لِحُـــرٍّ صَـــالِحٍ بِـــأَخٍ
لَـــوْ أنّـــهُ فـــي ثِيَـــابِ الحُـــرّ مَوْلُـــودُ
لا تَشْـــتَرِ العَبْـــدَ إلاّ والعَصَـــا مَعَـــهُ
إنّ العَبِيـــــدَ لأنْجَـــــاسٌ مَنَاكِيـــــدُ
ما كُنْـــتُ أحْسَـــبُنِي أحْيَـــا إلـــى زَمَـــنٍ
يُسِـــيءُ بِـــي فِيـــهِ عَبْـــدٌ وَهْـــوَ مَحْمُـــودُ
ولا تَوَهّمْـــتُ أنّ النّـــاسَ قَـــدْ فُقِـــدوا
وَأنّ مِثْـــلَ أبِـــي البَيْضَـــاءِ مَوْجُـــودُ
وَأنّ ذا الأسْـــوَدَ المَثْقُـــوبَ مَشْـــفَرُهُ
تُطِيعُـــهُ ذي العَضَـــارِيطُ الرّعَادِيـــدُ

جَوْعــانُ يأكُــلُ مِــنْ زادي وَيُمسِــكني
لكَــيْ يُقــالَ عَظــيمُ القَــدرِ مَقْصُــودُ
وَيَلْمَيَهَــــا خُطَّــــةً وَيَلُــــمَ قَابِلِهَــــا
لِمِثْلِهــــا خُلِــــقَ المَهْرِيَّــــةُ القَــــودُ
وَعِنْــدَها لَــذَّ طَعْــمَ المَــوْتِ شَــارِبُهُ
إنَّ المَنِيَّــــةَ عِنْــــدَ الــــذُّلِّ قِنْدِيــــدُ
مَنْ عَلَّــمَ الأسْــوَدَ المَخصِــيَّ مكرُمَــةً
أقَوْمُــــهُ البِــــيضُ أمْ آبَــــاؤهُ الصِّــــيدُ
أمْ أُذْنُــــهُ فــــي يَــــدِ النَّخَّــاسِ دامِيَــةً
أمْ قَــــدْرُهُ وَهْــــوَ بالفِلْسَــــينِ مَــــرْدُودُ
أوْلَــــى اللِّئَــــامِ كُــــوَيْفِيرٌ بمَعْــــذِرَةٍ
فــــي كُــلِّ لُــؤمٍ، وَبَعْــضُ العُــذرِ تَفْنِيــدُ
وَذاكَ أنَّ الفُحُــولَ البِــيضَ عــاجِزَةٌ
عَــنِ الجَمِيــلِ فكَيْــفَ الخِصْــيَةُ السُّــودُ؟

في هذا النص تبدو المفارقة اللغوية في عدة أمور :

في مقدمة النص إذ يبين الشاعر أن :

- ما في الكؤوس ليس خمرا إنما هو هم وتسهيد.
- الشاعر لا تطربه الأغاريد ولا الأغنيات لأنه قلق محزون كئيب النفس غير فارغ البال .
- وأن الشاعر كلما تمنى شيئا بعيد المنال صعب التحقق وجده في حين افتقاده حبيب القلب .

وتبدو المفارقة اللغوية في الحروف الصعبة التي وقع فيها إذ يسيء له كافور وهو عبد وما كان في ظنه واعتقاده ان يحيا إلى هذا الزمن العجيب .

ويقول :

ملومكما يجل عن الملام
ووقع فعاله فوق الكلام
ذراني والفلاة بلا دليل
ووجهي والهجير بلا لثام
فإني أستريح بذا وهذا
وأتعب بالإناخة والمقام
عيون رواحلي إن حرت عيني
وكل بغام رازحة بغامي
غد أرد المياه بغير هاد
سوى عدي لها برق الغمام
يذم لمهجتي ربي وسيفي
إذا احتاج الوحيد إلى الذمام
ولا أمسي لأهل البخل ضيفا
وليس قرى سوى مخ النعام
فلما صار ود الناس خيا
جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه
لعلمي أنه بعض الأنام

يُجـــبُّ العـــاقِلونَ عَلـــى التَصـــافي
وَحُـــبُّ الجـــاهِلينَ عَلـــى الوَســـامِ
وَأَنـــفُ مِـــن أَخـــي لأَبـــي وَأُمّـــي
إِذا مـــا لَـــم أَجِـــدهُ مِـــنَ الكِـــرامِ
أَرى الأَجـــدادَ تَغلِبُهـــا جميعًـــا
عَلـــى الأَولادِ أَخـــلاقُ اللِئـــامِ
وَلَسـتُ بِقـانِعٍ مِـن كُـلِّ فَضـلٍ
بِـــأَن أُعـــزى إِلـــى جَـــدٍّ هُمـــامِ
عَجِبـــتُ لِمَـــن لَـــهُ قَـــدٌّ وَحَـــدٌّ
وَيَنبـــو نَبـــوَةَ القَضـــيمِ الكَهـــامِ
وَمَـــن يَجِـــدُ الطَريـــقَ إِلـــى المَعـــالي
فَـــلا يَـــذَرُ المَطِـــيَّ بِـــلا سَـــنامِ
وَلَـــم أَرَ فـــي عُيـــوبِ النـــاسِ شَـــيئًا
كَـــنَقصِ القـــادِرينَ عَلـــى التَمـــامِ
أَقَمـــتُ بِـــأَرضِ مِصـــرَ فَـــلا وَرائـــي
تَخُـــبُّ بِـــيَ المَطِـــيُّ وَلا أَمـــامي
وَمَلَّنِـــيَ الفِـــراشُ وَكـــانَ جَنبـــي
يَمَـــلُّ لِقـــاءَهُ فـــي كُـــلِّ عـــامِ
قَلِيـــلٌ عائِـــدي سَـــقِمٌ فُـــؤادي
كَثِيـــرٌ حاسِـــدي صَـــعبٌ مَرامـــي
عَلِيـــلُ الجِســـمِ مُمتَنِـــعُ القِيـــامِ
شَـــديدُ السُـــكرِ مِـــن غَيـــرِ المُـــدامِ

وَزائِرَتـــي كَـــأنَّ بِهـــا حَيـــاءً
فَلَـــيسَ تَـــزورُ إلا فـــي الظَـــلامِ
بَـــذَلتُ لَهـــا المَطـــارِفَ وَالحَشـــايا
فَعافَتيـــ وَباتَـــت فـــي عِظـــامي
يَضـــيقُ الجِلـــدُ عَـــن نَفســـي وَعَنهـــا
فَتوسِـــعُهُ بِـــأنواعِ السِـــقامِ
إذا مـــا فـــارَقَتني غَسَّـــلَتني
كَأنّـــا عاكِفـــانِ عَلـــى حَـــرامِ
كَـــأنَّ الصُـــبحَ يَطرُدُهـــا فَتَجـــري
مَـــدامِعُها بِأربَعَـــةٍ سِـــجامِ
أُراقِـــبُ وَقتَهـــا مِـــن غَيـــرِ شَـــوقٍ
مُراقَبَـــةَ المَشـــوقِ المُســـتَهامِ
وَيَصـــدُقُ وَعـــدُها وَالصِـــدقُ شَـــرٌّ
إذا أَلقـــاكَ فـــي الكُـــرَبِ العِظـــامِ
أَبِنـــتَ الـــدَهرِ عِنـــدي كُـــلُّ بِنـــتٍ
فَكَيـــفَ وَصَـــلتِ أَنـــتِ مِـــنَ الزِحـــامِ؟
جَرَحـــتِ مُجَرَّحـــاً لَـــم يَبـــقَ فيـــهِ
مَكـــانٌ لِلسُـــيوفِ وَلا السِـــهامِ
فَرُبَّمـــا شَـــفَيتُ غَليـــلَ صَـــدري
بِسَـــيرٍ أَو قَنـــاةٍ أَو حُســـامِ
وَفارَقـــتُ الحَبيـــبَ بِـــلا وَداعٍ
وَوَدَّعـــتُ الـــبِلادَ بِـــلا سَـــلامِ

يقـــولُ لـــي الطَبيـــبُ أكَلـــتَ شَـــيئًا
وَداؤُكَ فـــــي شَـــــرابِكَ وَالطَعـــــامِ
وَمـــا فـــي طِبِّـــهِ أنّـــي جَـــوادٌ
أضَـــنُّ بِجِســـمِهِ طـــولُ الجِمـــامِ
تَعَـــوَّدَ أن يُغَبِّـــرَ فـــي السَـــرايا
وَيَـــدخُلَ مِـــن قَتـــامٍ فـــي قَتـــامِ

فَأمسِـــكَ لا يُطـــالُ لَـــهُ فَيَرعـــى
وَلا هُـــوَ فـــي العَليـــقِ وَلا اللِجـــامِ
فَإن أمرَض فَمـــا مَـــرِضَ اِصـــطِباري
وَإن أحمَـــمْ فَمـــا حُـــمَّ اِعتِزامـــي
وَإن أســـلَم فَمـــا أبقـــى وَلَكِـــن
سَـــلِمتُ مِـــنَ الحِمـــامِ إِلـــى الحِمـــامِ
تَمَتَّـــع مِـــن سُـــهادٍ أو رُقـــادٍ
وَلا تَأمُـــل كَـــرًى تَحـــتَ الرِجـــامِ
فَـــإِنَّ لِثالِـــثِ الحـــالَينِ مَعنـــىً
سِـــوى مَعنـــى اِنتِباهِـــكَ وَالمَنـــامِ

وفي ثنايا هذا النص نلمس اطارفة اللغوية في :

إظهار الشاعر أن راحته في حياة الصحراء وما فيها من هجير ومشقة وهي أيضا في السفر والارتحال والانتقال من مكان لآخر، وأن الراحة والاسترخاء تُضر بجسمه :

ذَرانـــي وَالفَـــلاةَ بِـــلا دَليـــلِ
وَوَجهـــي وَالهَجيـــرَ بِـــلا لِثـــامِ

فَـــإنّي أســـتَريحُ بِـــذا وَهَـــذا
وَأتعَـــبُ بالإناخَـــةِ وَالمُقَـــامِ

ثم انظر إلى المفارقة اللغوية في حواره مع الحمى التي ألمت بجسمه وصارت تنتابه كل يوم عندما يحل الظلام ، وكيف أنه ينتظر مجيئها من غير شوق:

أُراقِـبُ وَقتَهـا مِـن غَيـرِ شَـوقِ
مُراقَبَـــةَ المَشـــوقِ المُســـتَهامِ
وَيَصـــدُقُ وَعـــدُها وَالصِـــدقُ شَـــرٌّ
إِذا أَلقـــاكَ فـــي الكُـــرَبِ العِظـــامِ

وتأتي المفارقة في الجزء الأخير من النص والذي يبين فيه المتنبي أن الطبيب يظن سبب مرضه من طعام أكله ، وهو لا يعلم أن سبب مرضه ما هو فيه من دعة وراحة ، في قوله :

يَقـــولُ لـــي الطَبيـــبُ أَكَلـــتَ شَـــيئًا
وَداؤُكَ فـــي شَـــرابِكَ وَالطَعـــامِ
وَمـــا فـــي طِبِّـــهِ أَنّـــي جَـــوادٌ
أَضَـــنَّ بِجِســـمِهِ طـــولُ الجِمـــامِ
تَعَـــوَّدَ أَن يُغَبِّـــرَ فـــي السَـــرايا
وَيَـــدخُلَ مِـــن قَتـــامٍ فـــي قَتـــامِ
فَأَمسَـــكَ لا يُطـــالُ لَـــهُ قَيَرعـــى
وَلا هُـــوَ فـــي العَليـــقِ وَلا اللِجـــامِ
فَإِن لِمَرَض فَمـــا مَـــرِضَ إِصـــطِباري
وَإِن أُحمَـــمْ فَمـــا حُـــمَّ إِعتِرامـــي

وَإن أسـلَم فَمـا أبقـى ولَكِـن
سَـلِمتُ مِـنَ الحِمـامِ إلـى الحِمـامِ
تَمَتَّـع مِـن سُـهادٍ أو رُقـادٍ
وَلا تَأمُـل كَـرًى تَحـتَ الرِجـامِ

في شعر أبي فراس الحمداني

يقول:

أراك عصـي الـدمع شـيمتكِ الصـبر
أمـا للهـوى نهـي عليـك ولا أمـرُ ؟
بلـى أنـا مشـتاق وعنـدي لوعـة
لكـن مثلـي لا يـذاع لـه سـرُ
إذا الليل أضواني بسـطت يـد الهـوى
وأذللـت دمعـا مـن خلائقـه الكبـرُ
تكـاد تضـيء النـار بـين جـوانحي
إذا هِـي أذكتهـا الصـبابة والفكـرُ
معللتـي بالوصـل والمـوت دونـه
إذا مـت ظمآنـا فـلا نـزل القطـرْ
بـدوت وأهلـي حاضـرون لأننـي
أرى دارا لسـت مـن أهلهـا قفـرُ
وحاربت قـومي فـي هـواكِ وإنهـم
وإيـاي لـولا حبـكِ المـاء والخمـرُ
فإن كان كما قـال الوشـاة ولـم يكـن
فقـد يهـدم الإيمـان مـا شـيد الكفـرُ

وفيـــت وفـــي بعـــض الوفـــاء مـــة
لأنســـة فـــي الحـــي شـــيمتها الغـــدرُ
وقـــور وريعـــان الصـــبا يســـتفزها
فتـــأرن أحيانـــا كمـــا يـــأرن المهـــرُ
تســـائلني مـــن أنـــت وهـــى عليمـــة
وهـــل بفتـــى مثلـــي عنـــى حالـــه نكـــرُ
فقلت كما شـاءت وشـاء لهـا الهـوى
قتيلـــك قالـــت أيهـــم فهـــم كثـــرُ
فقلـــت لهـــا لـــو شـــئت لـــم تتعنتـــي
ولـــم تســـألي عنـــي وعنـــدك بـــي خبـــرُ
فقالت لقـد أزرى بـك الـدهر بعـدنا
فقلـــت معـــاذ الله بـــل أنـــتِ والـــدهرُ
فأيقنـــت أن لا عـــز بعـــدي لعاشـــق
وأن يـــدي ممـــا علقـــت بـــه صـــفرُ
وقلبـــت أمـــري ولا أرى لـــي راحـــة
إذا البـــين أنســـاني ألـــح بـــي الهجـــرُ
فعدت إلـى حكـم الزمـان وحكمهـا
لهـــا الـــذنب لا تجـــزى بـــه ولـــي العـــذرُ
فـــلا تنكرينـــي يـــا ابنـــة العـــم إنـــه
ليعـــرف مـــن أنكرتـــه البـــدو والحضـــرُ
ولا تنكرينـــي إننـــي غيـــر منكـــر
إذا زلـــت الأقـــدام واســـتنزل النصـــرُ

وإنـــــي لنـــــزال بكـــــل مخوفـــــة

كثيـــر إلـــى نزالهـــا النظـــر الشـــزرُ

وإنـــــي لجـــــرار لكـــــل كتيبـــــة

معـــــودة أن لا يخـــــل بهـــــا النصـــــرُ

فأظمأ حتـــى ترتـــوي البـــيض والقنـــا

وأســـغب حتـــى يشـــبع الـــذئب والنســـرُ

ويـــا رب دار لـــم تخفنـــي منيعـــة

طلعـــت عليهـــا بـــالردى أنـــا والفجـــرُ

وحـــي رددت الخيـــل حتـــى ملكتـــه

هزيمـــــا وردتنـــــي البراقـــــع والخمـــــرُ

وســـاحبة الأذيـــال نحـــوي لقيتهـــا

فلـــم يلقهـــا جـــافي اللقـــاء ولا وعـــرُ

وهبت لهـــا مـــا حـــازه الجـــيش كلـــه

ورحـــت ولـــم يكشـــف لأبياتهـــا ســـترُ

ولا راح يطغينـــي بأثوابـــه الغنـــى

ولا بـــات يثنينـــي عـــن الكـــرم الفقـــرُ

ومـــا حـــاجتي بالمـــال أبغـــي وفـــوره

إذا لـــم أفـــر عرضـــي فـــلا وفـــر الـــوفرْ

أسرت وما صحبي بعزل لـــدى الـــوغى

ولا فرســـي مهـــر ولا ربـــه غمـــرُ

ولكن إذا حـــم القضـــاء علـــى الـــردى

فلـــيس لـــه بـــرٌ يقيـــه ولا بحـــر

وقـــال أصـــيحابي الفـــرار أو الـــردى
فقلـــت همـــا أمـــران أحلاهمـــا مـــر
ولكننـــي أمضـــي لمـــا لا يعيبنـــي
وحســـبك مـــن أمـــرين خيرهمـــا الأســـر
يقولون لـــي بعـــت الســـلامة بـــالردى
فقلـــت أمـــا والله مـــا نـــالني خســـر
وهـــل يتجـــافى عنـــي المـــوت ســـاعة
إذا مـــا تجـــافى عنـــي الأســـر والضـــر
هو الموت فـــاختر مـــاعلا لـــك ذكـــره
فلـــم يمـــت الإنســـان مـــا حيـــى الـــذكر
ســـيذكرني قـــومي إذا جـــد جـــدهم
" وفـــي الليلـــة الظلمـــاء يفتقـــد البـــدر"
ولو سد غيري ما ســـددت اكتفـــوا بـــه
وما كـــان يغلـــو التبـــر لـــو غلـــى الصـــفر
فإن عشـــت فـــالطعن الـــذي يعرفونـــه
وتلـــك القنـــا والبـــيض والضـــمر الشـــقر
وإن مـــت فالإنســـان لابـــد ميـــت
وإن طالـــت الأيـــام وانفســـح العمـــر
ونحـــن أنـــاس لا توســـط بيننـــا
لنـــا الصـــدر دون العـــالمين أو القبـــر
تهـــون علينـــا فـــي المعـــالي نفوســـنا
ومن يخطـــب الحســـناء لـــم يغلهـــا المهـــر

أعز بنـــي الـــدنيا وأعلـــى ذوي العـــلا

وأكـــرم مـــن فـــوق التـــراب ولا فخـــر

هنا يعتمد الشاعر على المفارقة اللغوية ليبرز من خلالها موقفين متناقضين : موقفه وتصرفه كفارس فيه سمات الفارس وطباعه ، بين موقف محبوبته المتعالية المنكرة وجوده ، ومع ذلك يحاورها في هدوء بروح المحب المخلص في حبه .

وتبدأ المفارقة بسؤال المحبوبة أبا فراس الشاعر الفارس تقول له : إنك عصي الدمع ، وإن الهوى والعشق ليس لهما تأثير عليك لا بالأمر ولا بالنهي ، ويأتي جواب شاعرنا في هدوء دون انفعال مبينا لها حقيقة لا تعلمها ، وهي أنه برح به الشوق وفي قلبه لوعة منه ، ولكن لأنه فارس فلا يظهر تأثره وضعفه فهو مشتاق وعنده حرقة في القلب ، لكن مثله لا يفشى له سر.

وتعود تسأله في غرور وتجاهل واصف : من أنت ؟ والشاعر يؤكد أنها تعلمه جيدا وتعرف مكانه ، لأنه الفارس الذي لا يشق له غبار ، حتى أنه يعرفه القاصي والداني ، وعلى ذلك يجيب عن تساؤلها في تواضع وحب شديد : أنا قتيلك . فيزداد بها الغرور وتعلق قائلة : أي قتيل أنت فقتلاي كثيرون ؟ويرد في هدوء : لا داعي لهذا التعنت والادعاء والتجاهل المقصود ، فأنت تعلمين حقيقة أمري .

ولأنه فارس يأبى الضيم والمذلة يبين أنه كان وفيا (مع أن الوفاء يكون مذلة في بعض الأحيان) لفتاة تتسم بالغدر.

وفي غمرة ما عقد من مفارقة لغوية بينه وبين محبوبته المغرورة المتجاهلة يتحدث عن أمرين :

- الأسر الذي وقع فيه ، وأنه لم يكن صعيفًا ولا عاجزًا ، وغنما هو قدر مقدر له وأن الأسر لم ينقص من مروسيته وقدره شيئا ، فقد أوقعته الظروف بين خيارين كلاهما مر : الموت أو الأسر.

- الأمر الثاني فخره بنفسه وبقومه في الجزء الأخير من النص .

في شعر أبي العلاء المعري

أبو العلاء المعري رهين المحبسين ، عاش حياة شاقة حافلة بالمعاناة والتعب حتى أن آفة عدم الإبصار ألزمته داره ، وأبعدته عن المجتمع من حوله ، وقد عبر عن ذلك بقوله :

أراني في الثلاثة من سجوني
فلا تسأل عن النبأ الخبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي
وكون النفس في الجسم الخبيث

لذلك كانت السخرية سلاحه في مواجهة تحديات وصعوبات الحياة ، كما كان التأمل سلاحا آخر في مواجهة معترك الحياة .

كثيرون قبل أبي العلاء اتخذوا من السخرية سلاحا ودرعا واقيا ، فمن قبله سخر سقراط من قاتليه وهو يتجرع السم وسط رجاء تلاميذه أن يتراجع عن آرائه وبكائهم حزنا على فقده .

كما سخر أحد رجال لثورة الفرنسية من قاتليه قبيل إطلاق الرصاص عليه قائلا : "رصاصة واحدة تكفيني دع الباقي لبريء آخر" مما أضحك الحاضرين وأثار حقد قاتليه .

ويرى كثيرون أن السخرية سلاح يحمي الروح من ضعفها حينما تمر بها لحظات الضعف أو عندما تتعرض لرياح عاتية في معترك الحياة ، فحين تصدح الآلام هائلة تبتسم النفوس الكبيرة لتقضي على فلول الأسى ، ثم تحيل الابتسامة إلى سخرية وتهكم مما تلاقي من متاعب وصعوبات .

ومع سخرية المعري بالحياة ومحنتها الدائمة فقد تحلى بالحكمة ، وأعلن إيمانه بالعقل وثقته المطلقة فيه متخذا منه دليلاً وهاديًا وإمامًا:

كـــذب الظـــن لا إمـــامَ ســـوى
العقـــل مشـــيرًا فـــي صـــبحه والمســـاء

استمع إليه في تأملاته في الحياة والموت وهو يسوي على سبيل المفارقة اللغوية بين الموت والحياة ، وبين صوت البشير وصوت النعي ، وبين بكاء الحمامة وغنائها في قوله :

غير مجـد فـي ملتـي واعـتقادي
نـــوح بـــاك ولا تـــرنم شـــاد
وشـــبيه صـــوت النعـــي إذا قـــيس
بصـــوت البشـــير فـــي كـــل نـــاد
أبكـت تلكـم الحمامـة أم غـنت
علـى فـرع غصـنها المـياد
صـاح هـذي قبورنـا تمـلأ الرحـب
فـأين القبـور مـن عـهـد عـاد؟
خفـف الـوطء مـا أظـن أديـم ال
أرض إلا مـن هـذه الأجسـاد

سر إن اسطعت في الهواء رويدا
لا اختيالا على رفات العباد
رُب لحدٍ قد صار لحدًا مرارا
ضاحكٍ من تزاحم الأضداد
ودفينٍ على بقايا دفين
في طويل الأزمان والآباد
تعبٌ كلها الحياة فما أعجب
إلا من راغبٍ في ازدياد
إنّ حزنًا في ساعة الموت
أضعاف سرورٍ في ساعة الميلاد

الموت نقيض الحياة ، والغناء نقيض البكاء ، وصوت النعي غير صوت البشير أما حين يسوي المعري بينهما فتلك هي المفارقة اللغوية .

وفي رسالة الغفران :

وهي رسالة كتبها ليسقط عليها انطباعاته عن المجتمع ، وما يؤرق باله ممن حوله وما حوله من بشر وأشياء.

- فهو يسخر من المتبجحين ومن الواسحلة التي ترفع غير المستحقين إلى أماكن لا يستحقونها.
- وسخر كذلك من أدعياء الشعر والضعفاء الذين قالوا ما لا قيمة له ومثل لهم بالرجّاز ولعلهم الذين اختاروا بحر الرجز لقصائدهم ويسخر من أحدهم بقوله:

هذا أبو القاسم أعجوبة لكل من يدري ولا يدري

لا ينظم الشعر ولا يحفظ الـــــ ـــقرآن وهو الشـــاعر المُقـــري

- ويسخر المعري من طريقة بعض الرواة في الرواية لنصوص الشعر طارحًا في الوقت ذاته الطريقة التي يراها مناسبة .
- ثم يسخر من الجهل والتقليد، فهو يرى أن الجهل قد ساد بين الناس لدرجة صاروا معها يقبلون ما ترفضه العقول ، يقول ساخرًا :

لقد صدّق النـــاسُ مـــا الألبـــابُ تبطلـــه
حتّـــى لظنـــوا عجـــوزًا تحلـــب القمـــرا

- يسخر شاعرنا من شعراء التكسب ويبين أنه إذا انتشر شعر التكسب بين الناس فإن الشعر الحقيقي يفنى ولا يجد له سوقا بين الناس، يقول:

تكســـب النـــاس بالأجســـادِ فـــامتهنوا
أرواحهـــم بالرزايـــا فـــي الصـــناعات
وحـــاولوا الـــرزق بـــالأفواهِ فاجتهـــدوا
فـــي جـــذب نفـــع بـــنظمٍ أو ســـجاعات

وعن صناعة الأدب .الإبداع .يربأ بها المعري أن تنزل إلى السوق فتعرض للبيع للطغاة والأغنياء، وذلك في حوار تخيله بين إبليس وأديب حلبي "يقول إبليس:

من الرجل؟

فيقول: أنا فلان بن فلان من أهل حلب، كانت صناعتي الأدب أتقرب به إلى الملوك .

فيقول إبليس:

"بئس الصناعة إنها تهب رغيفًا من العيش لا يتسع بها العيال وإنها لمزلة بالقدم".

كما يسخر المعري من النحاة واللغويين الذين عقدوا مسالك النحو وأحالوه إلى طلاسم وألغاز بعد أن كان مع الأوائل من النحويين - أبي الأسود الدؤلي والخليل بن أحمد- صافيا ، حيث لم يكن فيه تكلف أو تصنع ، ولكنه صار صعبًا على يد الأخفش و الكسائيُ والفراء وأمثالهم الذين عقد لهم في رسالة الغفران مجالس ساخرة .

وواضح أن السخرية في شعر المعري تستند إلى آلية المفارقة اللغوية التي تجعل العلاقة بين المعنى المباشر وغير المباشر علاقة قائمة على التقابل الدلالي بين ما هو مباشر وغير مباشر.

ابن زيدون :

يقول في الرسالة الجدية :

يا مولايَ وسيّدي ، الّذي ودادي له ، ومَنْ أبقاه الله تعالى ماضِيَ حدّ العزم واري زند الأمل ، ثابتَ عهدِ النّعمه ، أظلمأتني إلى برودِ إسعافكَ ، ونفضتَ بي كفَّ حِباطَتك ، وغضضتَ عني طرفَ حمايتك ، بعدَ أن نظر الأعمى إلى تأميلي لكَ وسَمِعَ الأصمُّ ثنائي عليك ، وأحسّ الجماد بإستنادي إليكَ ، فلا غرو : قد يغصُّ بالماءِ شاربهُ ، ويقتلُ الدواء المستشفيَ به ، ويُؤتى الحذرُ من مأمنه ، وتكونَ منيّةُ المُتمني في أمنيتهِ والحين قد يسبقُ جَهدَ الحريصِ :

كل المصائبِ قد تمرُّ على الفتى
وتهونُ غيرَ شماتةِ الحُسّادِ

وإنّي لأتجلدُ وأُري الشامتينَ أني لريبِ الدّهرِ لا أتضعضعُ، فأقول :

هل انا إلا يد أدماها سُوارُها ، وجبينٌ عضَّ به إكليلهُ ، ومشرفيٌ الصقهُ بالأرضِ صاقِلهُ ، وسمهريٌ عَرَضَه على النّار مثقفُه ، وعبدٌ ذهب به سيده مذهب الذي يقول :

فقَسَا ليزدجروا ومن يك حازمًا
فليقسُ أحيانًا على من يرحمُ

هذا العتبُ محمودٌ عواقبه ، وهذهِ النّبوةُ غمرةٌ ثم تنجلي ، وهذه النكبةُ سحابةُ صيفٍ عن قريبٍ تُقشّع ، ولن يريبني من سيّدي أن أبطأ سَحَابُه ، أو تأخر - غير ضنين - غَناؤه ، فأبطأُ الدلاءِ فيضاً أملؤُها ، وأثقل السحائبِ مشياً أحفلُها ،

وأنفع الحيا ما صادف جدبا ، وألذُّ الشَّرابِ ما أصابَ غليلاً ، ومع اليوم غدٌ ، ولكل أجلٍ كتاب ، له الحمد على اغتنامِهِ ولا عتب عليه في إغفاله .

فإن يكنِ الفعلُ الذي ساءَ واحدًا

فأفعالُهُ اللاتي سَرَرنَ أُلوفُ

في هذه الرسالة الجدية تبدو المفارقة اللغوية في حديث ابن زيدون مع سيده ، وإبراز تغافله عنه في قوله :

(وغضضتَ عني طرفَ حمايتك ، بعدَ أن نظر الأعمى إلى تأميلي لكَ وسَمِعَ الأصمُّ ثنائي عليك) فقد مدح سيده مدحا موفورا بارزا عمق مفهومه من خلال المطابقة بين : نظر ، ويتأمل ، وبين : سمع ، والأصم ، حتى جعل الأعمى يتأمله ، والأصم يسمعه ، ومع هذا الثناء الملموس فقد غض سيده الطرف عنه .

ولكن ابن زيدون بعد هذا التقاضي برأيه خبر لأن :

(أبطأُ الدلاءِ فيضًا أملؤها ، وأثقل السحائبِ مشيا أحفلُها ، وأنفع الحيا ما صادف جدبا ، وألذُّ الشَّرابِ ما أصابَ غليلاً ، ومع اليوم غدٌ ، ولكل أجلٍ كتاب) .

والمفارقة بادية في مخالفة المنطق وما هو معهود ، فمعلوم أن البطء دليل الضعف والتخاذل ، لكنه خالف ذلك فجعل البطء مصاحبا للفيض والثراء (أبطأ الدلاء فيضا أملؤها) .

كما خالف المنطق في قوله :(أثقل السحائب مشيا أحفلها) ؛ إذ جعل ثقل السحائب مصحوبا بالامتلاء والخير والرغد .

ثم المفارقة التي مبعثها الطباق بين : الحيا والجدب ، وبين اليوم والغد وفي البيت الشعري بين ساء وسر.

المعتمد بن عباد

أبو القاسم المعتمد على الله بن عبّاد (وكذلك لُقِّب بالظافر والمؤيد) هو ثالث وآخر ملوك بني عبّاد في الأندلس، وابن أبي عمرو المعتضد حاكم إشبيلية، كان ملكًا لإشبيلية وقرطبة في عصر ملوك الطوائف قبل أن يقضي على إمارته المرابطون. ولد في باجة (إقليم في البرتغال حاليًا)، وخلف والده في حكم إشبيلية عندما كان في الثلاثين من عمره، ثم وسّع ملكه فاستولى على بلنسية ومرسية وقرطبة، وأصبح من أقوى ملوك الطوائف فأخذ الأمراء الآخرون يجلبون إليه الهدايا ويدفعون له الضرائب.

اهتم المعتمد بن عباد كثيرًا بالشعر، وكان يقضي الكثير من وقته بمجالسة الشعراء، فظهر في عهده شعراء معروفون مثل أبي بكر بن عمّار وابن زيدون وابن اللبانة وغيرهم. وقد ازدهرت إشبيلية في عهده، فعُمِّرت وشيدت. وفي خلال فترة حكم المعتمد حاول ألفونسو السادس ملك قشتالة مهاجمة مملكته، فاستعان بحاكم المرابطين يوسف بن تاشفين، وخاض معه معركة الزلاقة التي هزمت بها الجيوش القشتالية. لكن في عام ٤٨٤ هـ (١٠٩١م) شنّ يوسف بن تاشفين حربًا على المعتمد فحاصر أشبيلية، وتمكّن من الاستيلاء عليها وأسر المعتمد، ونفاه إلى مدينة أغمات في المغرب حيث توفّي أسيرًا بعد ذلك بأربع سنوات. رغم ذلك، فقد أثار إسقاط يوسف بن تاشفين لإمارة بني عباد الكثير من الجدل بين المؤرّخين قديمًا وحديثًا ووُجّهت انتقادات كثيرة له لما فعله بالمعتمد.[

وقيل: إنّ بنات المعتمد دخلن عليه السّجنَ في يوم عيدٍ، وكُنّ يغْـزلن للنّـاس بالأُجرة في أغْمات، فرآهنّ في أطمارٍ رثّةٍ، فَصَدَعْنَ قلبه، **فقال:**

فيما مضى كنـتَ بالأعيـاد مسـرورًا
فسـاءك العيـدُ فـي أغْمـاتَ مأسـورا
ترى بناتِك في الأطمار جائعـةً
يغـزلن للنـاس لا يملكـن قِطْميـرا
بَرَزْنَ نحوك للتّسليم خاشـعةً
أبصـارهُنّ حسـيراتٍ مكَاسـيرا
يَطَأْنَ في الطّين والأقـدامُ حافيةٌ
كأنّها لم تَطَأ مِسْـكًا وكافـورا
من بات بعدكَ في ملكٍ يُسَـرُّ به
فإنّمـا بـات بالأحـلام مغـرورا

في هذا النص يفارق الشاعر بين حالين مر بهما : حاله في اليسر، وحاله في العسر فقد كانت تسره الأعياد، ولكن بعد أسره تبدل الحال .

كما تبدو المفارقة في إبراز الشاعر حال بناته بعد أسره وما يلاقينه من تعب ونصب وضيق حال، حتى صرن يغزلن الثياب للناس، ويقارن بين حالهن وهن يطأن أقدامهن في الطين يسرن عليه، وهي الأقدام التي كانت تطأ الكافور والمسك أيام العز والسلطان في خلافة أبيهم .

وللمعتمد وقد أُحيط به :

لمّـــا تماســـكت الـــدّموعُ ... وتَنَهْنَـــهَ القلـــبُ الصّـــديعْ

قـــالوا: الخضـــوعُ سياســـةٌ ... فَلْيَبْـــدُ منـــك لهـــم خضـــوع

وألـــذ مـــن طعـــم الخضـــو ... ع علـــى فمـــي السّـــمُّ النّقيـــعُ

إن تَسْـــتَلِبْ عنّـــي الـــدُّنَا ... مَلْكـــي وتَسْـــلِمُني الْجُمُـــوعُ

فالقلـــبُ بـــين ضُلُـــوعِهِ ... لـــم تُسَـــلِم القلـــبَ الضُّـــلُوعُ

قـــد رُمْـــتُ يـــوم نِـــزالِهم ... أنْ لا تحصّـــنني الـــدُّرُوعْ

وبرزت لـــيس ســـوى القميـــ ... ـــصِ عن الحشَى شيءٌ نَفُـــوعُ

أجَلِيَ تأخّـــــــر، لـــم يكـــن ... بهـــواي ذلّـــي والخشـــوع

ما ســـــرت قـــطّ إلـــى القتـــا ... ل وكـــان فـــي أملـــي رجـــوع

شِـــــيَمُ الأُولَى أنا مـــنهم ... والأصـــل تتْبعـــهُ الفـــروعُ

يقارن في مفارقة طيبة بين ما يقول الناس- وهم مخطئون - ، وبين ما يعتقد فيه وهو الصواب ، فالناس يقولون : (الخضوع سياسة) طالبين منه أن يخضع ويخنع وهو يرى أن السم أهون على نفسه من السم النقيع .

ثم يبين أن الناس قد أسلموه وتخلوا عنه وتركوه وحيدًا يواجه مصيره ، ومع ذلك فهو متماسك قلبه ما يزال نابضًا لم تسلمه الضلوع ، وفي مفارقة جميلة يبرزها الطباق بين الأصل والفروع حين يدين أن هذه شيمته التي ورثها عن أجداده وهم الأصول .